قضايا اللغة في تفسير بنت الشاطئ

-السياق دراسة تداولية-

الطالبة : سناء عبداللي
جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

الملخص:

إن القراءة التفسيرية التي تقدم لها بنت الشاطئ قراءة تفاعلية ركزت فيها على جميع عناصر العملية التواصلية كالسياق والقارئ والمتكلم ...، وبذلك فتحت المجال لرؤية خصبة للكتاب الأكبر-القرآن الكريم-.

لذا سعى هذا المقال إلى تقديم مقاربة تداولية للسياق عند "بنت الشاطئ" في كتابها التفسير البياني للقرآن الكريم وكيفيه توجيهه للدلالة القرآنية والكشف عنها، فالتفسير البياني: كتاب تفسيري حاول كشف العلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به ، فتعامل مع الخطاب القرآني وفق مستويين: مستوى داخلي (سياق داخلي) ومستوى خارجي (سياق خارجي).

Summary:

The interpretive reading of the novel"the girl of the beach provide them with interactive reading focusing on all elements ofvthe communicative process such as the path,the reader and the speaker.....and thus it opened the way to see the ground for the greatest book _the holly coran_

So this article has sought to provide a delibrative approach ti the context of "the beach girl" in her interpretation of the koran chart and how to denote thr Quranic guidance detection.

So the explanation chart :

An expository books tried to uncover the relationship between the structure of the text and elements of communicative position associated with it are treated with coranic discourse according to two levels: The internal level (internal context) and the level of external (external context)

مقدمة:

تعتبر التداولية حقلا لسانيا مهتما بالبعد الاستعمالي، فهي تأخذ بعين الاعتبار كلا من النص وقائله وقارئه وسياقه، وهذه الأمور أغفلتها الدراسات السابقة وتبنتها الدراسات التداولية الحديثة ،بل نسب الفضل في ذلك إليها.

لكن إذا ركزنا على الدراسات العربية التفسيرية؛ سنجد أن التفكير التفسيري تفكير لا ينظر إلى البنية الظاهرة فقط ،بل ينظر إلى السياق الاستعمالي بجميع عناصره ليخرج بقراءة للسور، وربما هذا ما يفسر النظر المختلف لآيات القرآن الكريم من قبل المفسرين ،فلو كان تركيزهم على ظاهر البنية لما وجدنا اختلافا كبيرا في التفاسير القرآنية .

وهذا ما جعلنا نعمد إلى دراسة وضع السياق ومدى الاعتماد عليه كجانب مؤطر للعملية التواصلية في كتاب "التفسير البياني للقرآن الكريم" للباحثة "عائشة عبد الرحمان" الملقبة بـ :"بنت الشاطئ" ،فلم يعد يخفى علينا أن المبادئ التداولية الحديثة حاضرة في التراث العربي بين البلاغيين والأصوليين والمفسرين...،لكن بمصطلحات أخرى .

وللكشف عن التجلي السياقي -كظاهرة تداولية- اعتمدنا على مجموعة من العناصر في هذه الدراسة، ومن بينها:

وضع السياق في التفسير البياني ،ثم التطرق إل أنواع السياق الموجودة بين المستوى الداخلي والخارجي ،وفي الأخير النظرة الشمولية للنص التي تعكس التفاعل بين مختلف العناصر السياقية .

1/ السياق في التفسير البياني: يعتبر مجال البحث التداولي من أحدث مجالات الدراسة اللسانية، ويقوم على تجاوز الدراسة البنيوية إلى دراسة استعمالية للغة في طبقات مقامية مختلفة أي باعتبارها **"كلاما محددا صادر من متكلم محدد وموجها إلى مخاطب محدد في مقام تواصلي محدد لتحقيق غرض تواصلي محدد"[1].**

ويمكن توضيح كل من المجال التداولي والمجال البنيوي في المخطط التالي:

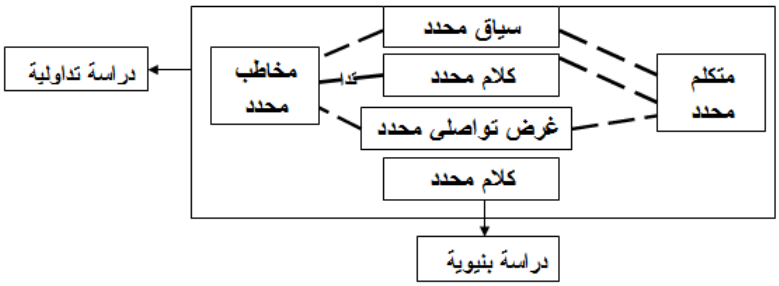

فالتداولية تؤمن بأن كل العناصر (سياق، المتكلم، المخاطب) سينتج كلاما محددا يرمي إلى غرض تواصلي محدد، لأن **"صناعة المعنى تتمثل في تداول negatiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلامها"[2]**. فالواجب في الدراسة البنيوية أخذ الجانب السياقي بعين الاعتبار وتجاوز النظر البنيوي العقيم، وبذلك يصبح للسياق دور مهم، فالفعل الكلامي لن يتحدد إلا من خلاله، وهذا ما جعل البعض يحصر تعريف التداولية في السياق، فيقول أن **"التداولية دراسة جوانب السياق aspects of context التي تشفر شكليا في تراكيب اللغة وهي عندئذ جزء من مقدرة المستعمل user pragmatics competen"[3]**.

ونجد الأمر نفسه فيما يذكره أوزولد ديكرو (Oswald dikro) وجون ماري سشايفر (j.m. Schaefer.) في القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان فمقام الخطاب عندهما هو **"مجموع الظروف التي نشأ التعبير في وسطها (الكتابي أو الشفاهي)، ويجب أن نفهم من هذا المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ الظروف فيه مكانه، والصورة التي تكون للمتخاطبين عنه وهوية هؤلاء والفكرة التي يصطنعها كل واحد عن الآخر... والأحداث التي .سبقت التعبير [وعليه فالتداولية] دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة بأنها تداولية "مكونات الوصف اللساني"[4].**

فالجانب السياقي عامل مهم في تقريب المعنى، أغفلته الدراسة البنيوية، ومثال ذلك قول أحدهم: (بأني متعب)، دراستها بنيويا لن تعطي نتيجة دراستها تداوليا وذلك بوضعها في سياقها وهو أن المتكلم قالها شخص لا يزال يحادثه ليلا في غرفته، فالمتكلم هنا يطلب من المخاطب التوقف عن الحديث بغرض النوم، وليس الإخبار عن التعب كما يظن البنيويون. فظروف الاستعمال هي من تحدد وظيفة البنية.

فتواصل البشر لغويا، غرضه إنجاز أفعال، أو ما يعرف بأفعال الكلام speach acts حين **"يتوقع المتكلم عادة أن يتعرف المستمع على نيته التواصلية، وتساعد الظروف المحيطة باللفظ أحيانا كلا من المتكلم والمستمع في هذه العملية، تسمى هذه الظروف بما فيها ألفاظا أخرى مقام الكلام event spech في الكثير من الأحيان تحدد طبيعة مقام الكلام تفسير اللفظ على أنه إنجاز لفعل كلامي محدد"[5].**

فنفس البنية تنتج أفعالا كلامية مختلفة باختلاف مقامات الكلام (إطراء، شكوى، إعجاب، اعتذار، طلب...).

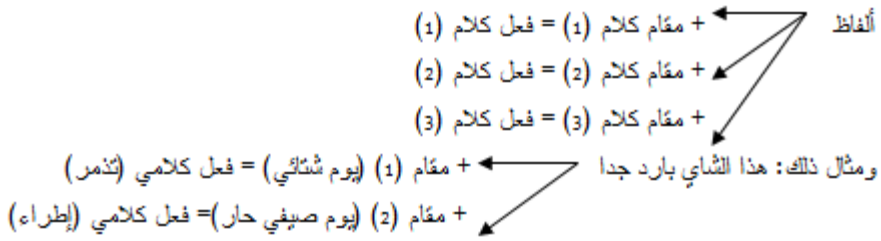

وبين التذمر والإطراء فرق شاسع لا تشير إليه الدراسات البنيوية لإغفالها الجانب السياقي الذي ترد فيه تلك البنى.

وعلى الرغم من أن كل ما ذكر نابع من دراسة تداولية معاصرة، إلا أن الواقف على الممارسة العربية والإسلامية في مجال التفسير تحديدا سيجد اهتماما متناهيا للنص وقائله وقارئه وسياقه في تماذج متكامل.

وهذه هي القراءة التي ترسخ لها "بنت الشاطئ" في تفسيرها البياني ونعرضها من خلال ضوابط المنهج البياني الذي تعلمته من أستاذها أمين الخولي:[6]

1- جمع ما في الكتاب المحكم من صور وآيات في الموضوع المدروس (التناول الموضوعي).

2- ترتيب الآيات حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، والاستئناس بالمرويات في أسباب النزول، من حيث هي قرائن لابست نزول الآية.

3- تلمس الدلالة اللغوية الأصلية، ثم لمح الدلالة القرآنية باستقراء كل ما في القرآن من صيغ اللفظ والأخذ بسياقها العام في القرآن الكريم.

4- الاحتكام إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحمله نصا وروحا.

وبذلك فبنت الشاطئ " لا تباشر عملية التفاعل مع النص إلا بوضعه في سياقه اللغوي الفعلي وسياق الموقف، أملا في الوصول إلى الدلالة القرآنية الفياضة. لأنها أدركت أن المعنى الذي يريد الله إيصاله إلى البشر كافة عن طريق كتابه الكريم، يتطلب منها تحديد الضوابط التي تحكم الاستعمالات والسياقات.

حيث يظهر اهتمامها بالسياق اللغوي في إيمانها أن الكلمة لا يتحدد معناها إلى بعلاقتها مع الكلمة الأخرى في السلسلة الكلامية القرآنية.

ففي قوله تعالى: ((**وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى**)) [الضحى 2]

تعرض[7] بنت الشاطئ الأقوال المختلفة للمفسرين في تفسير: الضحى فنقرأ في "الطبري" اختلاف أهل التأويل في (الضحى)، فهو النهار كله، وهو ساعات النهار.

والزمخشري يقول هو صدر النهار، وقيل أريد بالضحى النهار، ويذكر الشيخ محمد عبده أن الضحى: ضوء الشمس في شباب النهار.

أمام كل هذه الأوان تتساءل المفسرة عن معنى الضحى؟ وتقول: إذا كان اللفظ لغة يحتمل أكثر من معنى على ما ذكروا في الضحى، فإن البلاغة لا تجيز إلا معنى واحدا في المقام الواحد، يقوم باللفظ بعينه، لا يقوم به سواه.

وتكمل بحثها عن مادة ضحى، ثم تنتقل إلى رصد استعمالاتها المختلفة عبر القرآن الكريم آية النزعات: 46، 29، الأعراف: 97،طه 59، فتجد أن استعمالها كان للدلالة على وقت محدد، وبذلك تستبعد أن يكون الضحى هو النهار بأكمله. وفي قوله تعالى: ((**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**)). [الضحى 7].

تذكر المفسرة[8] أن أصل الضلال في الاستعمال اللغوي فقدان الطريق والقرآن الكريم استعمل الضلال بمعنى الكفر، مع بقاء الملفظ الحسي اللغوي الذي هو ظلال الطريق بدليل اقتران الظلال بالسبيل، عشرين مرة (السجدة 10، الإسراء 72...).

وترفض قول بعض المفسرين بأن الضلال هو الكفر لأن الأنبياء معصومين عن الكفر قبل النبوة وبعدها، ثم تذكر تأويلات مختلفة للضلال على أنه ضلاله عليه الصلاة والسلام عن القبلة أو الهجرة أو الضلال عن مرضعته السعدية...

ثم تذكر أنه ما من حاجة إلى كل هذه التأويلات، بل يكفي في الرد على من فسروا الضلال بالكفر، أن الاستعمال القرآني لا يلتزم دائما هذا المعنى الاصطلاحي، فقد لحظ في بعض الاستعمالات القرآنية الأصل اللغوي من ضلال الطريق أو عدم الاهتداء إلى الصواب.

كما جاء على لسان إخوة يوسف: ((**تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ**)). [يوسف 95]. و((**إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**)).

وتخلص إلى أن الاحتكام إلى القرآن نفسه يعفينا من التزام المصطلح في لفظ الضلال بمعنى الكفر.

أما سياق الموقف فيبرز عندها في **" التعبير الذي يصيب المدلولات باختلاف المواقف التي تستخدم فيها المدلولات، أي إنه يعنى بتحديد الظروف والملابسات"**[9] التي كونت لنا تلك البنى.

فبنت الشاطئ تحرص دوما على الإحاطة بأسباب النزول والمرويات وملابسات السورة، وترتيب نزولها، مع التشديد على أن أسباب النزول لا تعدو أن تكون قرائن مما حول النص، وهي **"باعتراف الأقدمين أنفسهم لا تخلو من وهم، والاختلاف فيها قديم ... وليس السبب فيها بمعنى السببية الحكمية العلية"**[10].

وإشارة الباحثة هنا ليس تناقضا مع ما ذكرته سابقا وإنما دعوة إلى الاعتدال في الأخذ بأسباب النزول وسياقات السور المختلفة لأن الخلاف فيها **"يرجع غالبا إلى أن الذين عاصروا الآية أو السورة ربطها كل منهم بما فهم أو بما توهم أنه السبب في نزولها"**[11].

ومن جهة ثانية وجب عدم التكلف في توريط النص ما لا يحمله والتنبه إلى خطر التأويلات المذهبية والمدسوسات الإسرائيلية.

ففي قوله تعالى: ((**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**)). [الضحى 3]

ذكر بعض المفسرين[12] أن سبب ابطاء الوحي أن جروا للحسن والحسين كان في بيت النبوة فرفض جبريل الدخول.

لكن بنت الشاطئ تتعجب من ذلك فنقول: لا أدري كيف فاتهم أن الحسن والحسين ولدا بعد الهجرة بثلاث سنوات وأربع، وسورة الضحى من أوائل الوحي نزلت بمكة قبل الهجرة بسنين.

وبهذا فإن "بنت الشاطئ" في سيرها تتوافق إلى حد بعيد مع ما جاء به:فيرث(Firth)

فهذا الأخير انتهى إلى أن تحديد المعنى يتوقف على:

"1/ تحليل السياق اللغوي: صوتيا وصرفيا، نحويا ومعجميا.

2/ بيان شخصية المتكلم والمخاطب، والظروف المحيطة بالكلام.

3/ بيان نوع الوظيفة الكلامية.

4/ بيان الأثر الذي يتركه الكلام".[13]

والمفسرة الباحثة عن أسرار الكتاب الأكبر لا تخرج عن هذه النقاط لإيقانها ضرورة الالتفات إلى العلاقة بين النص وسياقه فالنص القرآني عندها **"خطاب نصي وليس وحدات جزئية مشتتة كما تصوره الأقدمون، فلم يستطيعوا التعرف الحيوي على خواصه الحقيقية"**[14]

وللتفصيل أكثر في تناول "بنت الشاطئ" للمبحث السياقي، سنحاول في العنصر الموالي البحث في أنواع السياق التي شملها التفسير البياني وضرورة الجمع بينها لتحقيق النظرة التكاملية التداولية.

2-1) أنواع السياق: تم الإشارة في العنصر السابق إلى الأهمية التي يكتسيها عنصر "السياق" في البحث التداولي، وبالقدر نفسه وجدنا أهمية واهتماما غير قليل به في التفسير البياني، فالباحثة عنيت **"بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منتظم"**[15]، هذا هو البحث التداولي. لكن بالتركيز على التفسير البياني –بجزئيه- نجد أن "بنت الشاطئ" تعاملت مع الخطاب القرآني وفق مستويين: مستوى داخلي (سياق داخلي) ومستوى خارجي (سياق خارجي).

1-1) السياق الداخلي (المستوى الداخلي): يمكن تعريف السياق الداخلي بأنه دراسة بنية الخطاب **"بالتركيز على المكونات اللغوية والبلاغية مفردة ومركزة"**[16].

وبالنظر في تفسير "بنت الشاطئ" نجد أنها تولي أهمية للبنية اللغوية وعلاقة الآية المذكورة بالآيات السابقة واللاحقة.

ونجد أن: د. أسامة البحيري يفصل السياق الداخلي[17] وفق مجالين: مجال اللغة و مجال التأليف، فأما مجال اللغة فيشمل العناصر التالية:

1/ السياق الصوتي التجريبي أو الفوناتيكي (نوعية الصوت، سرعة الأداء...): ربما سيكون هذا السياق أنجع في الدراسات المسرحية أو الإشهارية ففيها سيكون للإيقاعات الصوتية والأدائية صدى أكبر، لكن هذا لا يمنع من أن "بنت الشاطئ" كمفسرة، كان لها إطلاع على القراءات القرآنية، فخصوصية اللغة العربية وخصوصية الكتاب القرآني تحتاج إلى هذه الإشارات، إذ تقول: **"حرصت -ما استطعت- على أن أخلص لفهم النص القرآني فهما مستشفا من روح العربية ومزاجها، مستأنسة في لفظ بل في كل حركة ونبرة بأسلوب القرآن نفسه، ومحتكمة إليه وحده، عندما يشتجر الخلاف، على هدي التتبع الدقيق لمعجم ألفاظه والتدبر الواعي لدلالة سياقه"**[18].

ومن تلك الإشارات ما جاء في تفسيرها سورة الزلزلة،[19] في قوله تعالى: ((**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا**)). [الزلزلة 1].

فقد ذكرت قراءة الجمهور (زِلزالها) بكسر الزاي وهي قراءة الأئمة السبعة وفي قراءة بفتحها، والفرق بينهما أن المكسور مصدر، والمفتوح اسم وليس في الأبنية –كما قالوا- فَعَلال بالفتح إلا في المضاعف.

وبناء على هذا تقرر المفسرة أن المصدرية أولى بالمقام، لما فيها من تأكيد يلائم السياق.

وبهذه اللفتة السياقية تخلص "بنت الشاطئ" إلى سر السياق وراء كل هذا وهو: تأكيد الحدث وصرف الذهن إليه.

- فالمقام هنا مقام تأكيد، بذكر المصدر المفتوح (دعمته القراءة).
- والحال هنا حال إنكار بعض السامعين (أو المخاطبين) من الكفار.

ولذا كان هناك تلاءم بينهما لأن الحال يتعلق بالمخاطب في حين راعى السياق هنا بكيفية صياغة الملفوظ صوتيا (تماشيا) مع خصوصية العلامات في اللغة العربية فهي تغير وظائف الألفاظ.

وفي قوله تعالى: ((**إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى**)) [الليل 20-21]

تشير "بنت الشاطئ"[20] إلى أثر اختلافات القراءة وبالتالي أثر السياق الصوتي في تحديد المعنى النحوي فالتفسيري. وذلك في القراءة بنصب ابتغَاء، وهي قراءة الجمهور، والنصب فيه عندهم إما على الاستثناء، أو مفعولا لأجله، وأما القراءة بالرفع فتأولوه فيها على البدل من نعمه وهي في الصنعة الإعرابية في موضع رفع، وحرف الجر قبلها زائد.

أما في قوله تعالى: ((**فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ**)) [الفجر 24-25]، تنوه بنت الشاطئ إلى اختلاف القراءات وأثرها على المعنى في (يوثق،يعذب)[21] فقد قرأها الجمهور بكسر الذال والثاء في الفعلين –على البناء للمعلوم- لأن في إسناد التعذيب والإيثاق إلى الله تعالى يبلغ به الترويع منتهاه (فعل كلامي: قمة الترهيب).

وفي قراءتها بالفتح –على البناء للمجهول- قيل احتجاجا لها: "كيف يجوز الكسر ولا معذب يومئذ إلا الله؟" وهو قول تلمح فيه أثر الصنعة البلاغية التي تبنى للجمهور للعلم بالفاعل.

وبالنسبة للسياق الصوتي فإن ذكره سيجعلنا نلتفت مباشرة إلى الفواصل القرآنية (سجع) كيف لا وهو ملىء بها، لكن الباحثة تشدد على عدم الانسياب وراءها كثيرا كي لا نفقد الكثير من الملامح البيانية الرائعة.

ونجد هذا في قوله تعالى: ((**وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى**)) [الليل 19].

إذ تشير[22] "بنت الشاطئ" إلى تعلق بعض المفسرين بالصنعة البديعية في مجيء (تجزى) على مجرد رعاية الفاصلة (يغشي، تجلى، أنثى ،شتى،يسرى...)وكان أصله (تجز إياها أو إياه) وهذا ملحظ شكلي من الزخرف البديعي لا نقول مثله في البيان الأعلى، وإنما جاء البناء للمجهول لمقتضى معنوي وهو أن البذل هنا لم يكن عن قصد جزاء لأحد أو من أحد، على الإطلاق وإنما هو خالص لوجه الله تعالى.

فلفلتة المفسرة ساعدت في تحديد الفعل الكلامي (المدح).

ويتشابه الأمر في ما ذهب إليه بعض المفسرين من حذف ضمير المخاطب في الفعل (قلى) من قوله تعالى: ((**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى**)) [ضحى 3]، إذ عللوا الحذف برعاية الفاصلة، لكن "بنت الشاطئ" ترفض أن يقوم البيان القرآني على اعتبار لفظي محض، وإنما الحذف لمقتضى معنوي[23] بلاغي يقويه الأداء اللفظي، دون أن يكون الملحظ الشكلي هو الأصل، ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا، لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى. ((**فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**)) وليس في الصورة حرف ثاء على الإطلاق.

ثم تقرر المفسرة بأن الحذف تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة في اللطف والإيناس هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى مقام البغض(ما قلاك) لما في القلى من طرد وإبعاد وشدة بغض.

3- السياق الصرفي (بنية الكلمات، الصيغ الشائعة).

4- السياق النحوي (تركيب الجملة، تقديم ، تأخير).

5- السياق المعجمي (معاني المفردات، الأمل المعجمي).

تهتم "بنت الشاطئ" اهتماما كبيرا بهذه السياقات الثلاثة خصوصا السياق الأخير بشكل يجعل خاص فقد طبع تفسيرها أكثر من فكرة المنهج الموضوعي الذي نادت به عبر استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده، والبحث عن معانيه في مختلف المعاجم حتى تصل –حسب فهمها- إلى ما ترى أنه الصواب وهذا أحد أسس لمنهجها الذي نادت به منذ البداية في مقدمتها حين قالت عنه: **"والمنهج المتَّبع الذي خضعت له فيما قدمت له من قبل بضوابطه الصارمة التي تأخذ باستقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالته. وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة، ثم سياقها العام في المصحف كله التماسا لسره البياني إذ نضع معاجم اللغة العربية وكتب التفسير في خدمة هذا المنهج، فإنَّا نحاول أن ندرك حسّ العربية من الألفاظ التي نتدبرها من النص القرآني، عن طريق لمح الدلالة المشتركة في شتَّى وجوه استعمالها لكل لفظ ،وواضح أنه لا سبيل إلى دراسة أي نص في لغةٍ ما دون فقه لألفاظه في لغته، ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية, أو يضيف إليها ملحظًا ينفرد به"[24].**

فعائشة تؤمن بخصوصية اللفظ القرآني، تؤمن بأن (اللفظ المحدد) يكون في (سياق محدد) ليعطي (فعل كلاميا) محددا لكن هذا لا يعني الرفض المطلق للصيغ في فصحى العربية.

وكان لعنايتها بالجانب المعجمي عناية بالجانب النحوي والصرفي، ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسيرها لقوله تعالى: ((**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ**)). [الهمزة 1].[25]

فتذكر أن صيغة: "همزة" لم تأت في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع، وإن جاء من مادتها صيغتان أخريان، هماز: ((**وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ .هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ**)). [قلم1].

و"همزات": ((**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ**)). [المؤمنون 97].

وكذلك تفعل في صيغة "لمزة" فتقول أنها لم ترد بهذه الصيغة إلا في هذا الموقع وجاء الفعل مضارعا في ثلاث آيات.

((**وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ**)). [الحجرات 11]، ((**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**)). [التوبة 58]. ومعها آية (التوبة 79) في الصدقات أيضا.

وبذلك فهي تحدد جميع أماكن ورود مادتي (الهمز واللمز) في القرآن الكريم ثم تنتقل بعد هذا الاستقراء القرآني إلى ذكر آراء اللغويين والمفسرين فتجد أن صيغة همزة ولمزة تستعمل فيمن يكثر منه فعلها حتى كأن ذلك عادة منه قد ضَرِي بها، لكنهم لم يتفقوا في دلالتها فمنهم من سوى بينهما ومنهم من جعل الهمز للتحقير والعيب في الغيب واللمز تحقير وهزء صراحة ومنهم من عكس الوضع فقال بأن الهمز صراحة واللمز في غيب.

وأمام هذا الاختلاف تحتكم "بنت الشاطئ" –كعادتها- إلى القرآن الكريم تطبيقا لمنهجها الصارم.

فتورد أن الهمز لوسوسة الشيطان (سورة المؤمنون) والنميمة (القلم)، أما اللمز فيستعمل للتنابز بالألقاب (الحجرات) وفي الاعتراض على تقسيم الصدقات (التوبة) ولا يكون ذلك إلا مواجهة.

ثم تستأنس باستعمال العربية للمادتين فتورد أن الهمز حس للنقرة والمكان المنخسف، والمهماز خُفِّ الذي يروض الفرس، والمهامز مقارع النخاسين ينخسون بها الدواب والرقيق ولا يكون النخس في العربية إلا في مؤخرة الدابة أو جنبها دون وجهها وصدرها.

وبعد كل هذا تؤكد في الأخير اطمئنانها إلى أن الهمزة هو الذي يدأب على تحقير الناس والإيغال في تجريحهم من خلف ظهورهم، واللمزة الذي يدأب على مواجهتهم بكلمة السوء تحقيرا لهم وغضا من شأنهم، ولهذه الأفعال المحددة وجه الخطاب القرآني- بغرض محدد- لوما وإنذارا بعذاب واقع.

وإيمان "بنت الشاطئ" بأن المعنى يتحدد من تحليل السياق اللغوي (صوتيا وصرفيا ونحويا ومعجميا) جعلها ترفض كل ما لا يخضع لها السياق ومن ذلك تفسيرها لقوله تعالى: ((**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**))، [الضحى 5]، فهي ترى[26] أن لا وجه لتحديد المقصود بالعطاء في الآية، بما ذكره الرازي أو غيره، من ألف قصر في الجنة من لؤلؤ ترابهن مسك وزادوا على ذلك اللون فقالوا لؤلؤ أبيض...، بل يجب مسايرة البيان القرآني الذي لم يشأ أن يحدده، فحسب الرسول صلى الله عليه وسلم الإعطاء الذي يرضيه، وليس وراء الرضى مطمع ولا بعده غاية.

وتؤكد أنه لا يجب أن نحتكم بأذواقنا وأمزجتنا وشخصياتنا وظروفنا وأحوالنا في تحديد هذا الذي يرضى الرسول، أو نشغل عن تدبر سر البيان في إطلاقه العام وانتهائه إلى الرضى.

كما أنها ترفض الخروج عن القاعدة النحوية القرآنية، بل تتعجب من فعل اللغويين والنحويين في رفض ما يخرج عن قاعدتهم وإن كان هذا الخارج أفصح النصوص ألا وهو القرآن الكريم، فكيف لهم أن يجعلوا قواعدهم المأخوذة من البشر الأصل، ويقيسوا كلام خالق البشر عليها.

مثال ذلك قوله تعالى: {**وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**} ففيما يخص[27] الصنعة الإعرابية تذكر المفسرة أن بعض المفسرين أثاروا مشكلات ما أغنى عنها البيان القرآني: القاعدة النحوية عندهم أن اللام في (سوف) إن كانت للقسم، لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد، وإن كانت اللام للابتداء فإنها لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر. وتحتار مما يفعله هؤلاء من تكلف واحتيال لتسوية الصنعة !!!. فالزمخشري يرى أنه لابد من تقدير مبتدأ محذوف وأن

يكون أصل العبارة. (ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى). وكذلك قال "أبو حيان": إن اللام هنا لام ابتداء أكدت مضمون الجملة على إضمار مبتدأ أي: ولأنت سوف يعطيك.

وترى الباحثة أن هذا جور للصنعة الإعرابية على هذا البيان العالي، بل تجاوز للقدر حين يؤولون الآية المحكمة من البيان الأعلى، فيقول قائلهم: لابد من تقدير كذا... لأن أصل التعبير كذا !!

وكان يكفي أن يأتي التعبير في الكتاب العربي المبين ليكون هو الشاهد والحجة والأصل الذي تعرض عليه كل قاعدة لغوية أو بلاغية.

ومن أمثلة "بنت الشاطئ" في مراعاة تركيب الجملة ما جاء في قوله تعالى: **((وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ))**، [الشرح 8]، فهي تبدأ بتحديد معنى الرغب[28] على أنه الميل والإرادة، وتلحظ في هذه الكلمة ميلا إلى كل ما هو واسع ورحب، ثم تستقرأ استعمالاتها القرآنية فتجد أنها تأتي الرغبة في السياق الديني في مثل آيات:

البقرة: 130، **((مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ))**.

مريم: 46، **((قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ))**

التوبة: 59، **((وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ))**

القلم: 32، **((عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ))**

النساء: 127، **((وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ))**

التوبة: 120، **((مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ))**

وجاء الرغب مع الرهب في آية الأنبياء 90: في غير السياق الديني بمعنى الميل القوي: **((إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ))**.

ثم تشير المفسرة إلى ملحظ بياني في قوله تعالى: **((وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ))** وهو في تقديم ((وإلى ربك)) على الفعل (ارغب)، وهو أسلوب بلاغي يفيد القصر والتخصيص. وفي هذا الملحظ تذكر رأي الإمام الطبري الذي يقول: اجعل رغبتك إلى ربك دون من سواه من خلقه، أما النيسابوري يقول: ارغب إلى ربك في إنجاز المأمول لا إلى غيره، يعطيك خير الدارين، وقال الشيخ محمد عبده: لا ترغب إلى أحد في إستثمار أعمالك إلا إلى الله وحده.

وبعد هذا تلفتنا بنت الشاطئ إلى أن الآية ربطت بما قبلها بواو العطف فلزم أن يكون التخصيص في **((وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ))** مرتبطة بما قبله متصلا به. ووصل الآية بما قبلها هو الذي يطرد به النسق وتتم به وحده السياق في السورة كلها فتتعلق رغبة المصطفى بالله وحده.

وأمثال هذا الاهتمام بالسياق اللغوي كثيرة في تفسير "بنت الشاطئ" إذ نكاد نجدها في كل آية من السور التي فسرتها.

وفي العنصر الموالي سنحاول الكشف عن مدى اهتمام المفسرة بالسياق الخارجي.

1-2) السياق الخارجي (المستوى الخارجي): تؤمن عائشة بأنه لا يمكن بلوغ تفسير سليم للكتاب الأكبر بدراسته بمعزل عن سياقاته التخاطبية، لذلك تعامل الخطاب القرآني من مستويين أو سياقين داخلي (وقد سبق الكلام عنه في العنصر السابق) وخارجي. ويعنى هذا الأخير بدراسة الظروف الخارجية المحيطة بالخطاب الأدبي (الواقع الخارجي، المبدع ،المتلقي...) فيراعى الوظيفة الاجتماعية.

ويمكن القول بأن السياق الخارجي سياق محيط بالنص يدرس عناصر عدة منها:

1/ المحيط الزمني (العمر).

2/ نوع الكلام، الجنس الأدبي، الموضوع

3/ المرسل (متكلم/ كاتب).

4/ المستقبل (مستمع/ قارئ).

5/ علاقة طرفي التواصل المرسل والمرسل إليه.

6/ المحيط المكاني (المقام وما يحيط به)

7/ حركات الجسم أثناء الإرسال وأثناء الاستقبال.

8/ اللهجة واللغة (الشفرة).

9/ شكل النص (منطوق/ مكتوب).

10/ شكل التلقي (سمعي أو بصري).[29]

وكما أشرنا سابقا خصوصية النص القرآني ستصنع البحث في كل هذه العناصر فكونه نصا مكتوبا سيتعسر تحديد حركات الجسم أثناء الإرسال أو أثناء الاستقبال فهي خاصة بالمقام (وضعي غير لغوي) أما السياق (مفهوم لساني contexte) ولن يكون لها أثر إلا إذا ترجمت لغويا فيصبح بمثابة مقام سياقي:

فالمقام **"مجموعة من العوامل التي يتعين على الفرد الاحتفاء بها حتى يوفق في إنجاز فعله اللغوي".**[30]

ويميز جورج مونان(j.munan) بينهما فيقول: **"ينبغي تمييز السياق الذي هو لساني، عن المقام الذي هو الخبرة غير اللسانية، ... في المقام نشير إلى قلم على الطاولة، قائلين أعطني إياه، وكتب مقابل ذلك أعطني القلم الذي على الطاولة، رادين المقام الغائب إلى السياق اللساني"[31].**

والعلاقة بينهما علاقة تكامل، فالمقام يغنينا عن الكثير من المعلومات التي كانت اللغة تعبر عنها، لذا تسعى المفسرة بكل ما استطاعت إلى تحديد السياق الخارجي للخطاب القرآني فهو الذي سيحدد المعنى السليم للسورة.

ويقدم أندري مارتيني (A. Martin) مثالا موفقا على ذلك إذ يقول: **"بالإضافة إلى ذلك هناك المقام كله في المعنى الأعم للمفردة فالعبارة لن تكون ذاتها حسبما نتكلم في الشارع وسط الأوتوبيسات التي تمر حولك في كل برهة، أو لو كنا نتكلم بهدوء في غرفة استقبال منفردين دون ضجة ودون تدخل من أي نوع كان".[32]**

فالمحيط الخارجي حسب مارتيني هو الذي يحدد شكل الخطاب بل إن هذا السياق المقامي قد يكتسي أهمية أكبر في التواصل اللغوي إلى درجة يؤدي فيها هذا السياق بعض وظائف اللغة بدليل:[33]

-احتمال حيازة المقولات الخاصة وظيفة أخرى ودلالة أخرى لدى استعمالها في مقام آخر. كقولنا: احترق الخط: فقد يكون: -كهرباء: انقطاعه

-تجارة: كساد السوق.

- احتمال أداء مقولات لغوية مختلفة ومتعددة وظيفة واحدة ودلالة واحدة في موقف واحد مثل: أغلق النافذة من فظلك، الهواء بارد هنا...

- احتمال استكمال المقولات اللغوية غير الكاملة بالسياق المقام كما في المثال الذي ذكره (Jast Trier) في النص الآتي (إلى اليمين- إلى اليسار- والآن بعيدا- توقف- انطلق- جيد- الآن إلى الأسفل يسارا- يمينا...)

فنحن لن نفهم هذه الكلمات إلا إذا وضعت في مقامها، (امتحان رخصة السياقة)، ولأن غرض "بنت الشاطئ" تقديم الأصح والأسلم للقرآن الكريم فإنها لا تفوت هذه الاحتمالات فيما يخص السياق. ومن أمثلة ذلك ما تذكره في تفسير سورة الضحى.[34]

فتبدأ بذكر السياق العام للسورة وتحديدا المحيط الزمني والمحيط المكاني ستقول السورة مكية بلا خلاف والمشهور أنها الحادية عشر في ترتيب النزول، وفي أسباب النزول تذكر السبب المجمع عليه ثم الاختلافات الخارجة

عن الإجماع، ففي السبب المجمع عليه تقول أن سبب النزول (إبطاء الوحي في أوائله على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى شق ذلك عليه وقيل فيما قيل ودّع محمدا وبه .....).

أما الروايات المختلفة في آيات النزول فتذكرها دون الوقوف عندها، لأنها توقن أن هذه الأسباب فيها ما فيها من وهم باعتراف الأقدمين وليس السبب فيها بمعنى السببية العلية الحكمية.

إلا أنها تعتمد على ما تم الإجماع عليه وما تطمئن هي إليه وما يوافق السياق القرآني وهو هنا (إبطاء الوحي ومهاجمة الكفار للرسول بأن ربه تركه)، فما كانت سورة الضحى إلا درعا لهؤلاء المشركين ونصرة وطمأنة للرسول بأن الله معه، إذن فبعد تحديدها المحيط الزماني والمكاني، حددت :

- المرسل (الله تعالى).
- المستقبل (الرسول)
-الموضوع (إيناسه وطمأنته وردع الكفار)
-العلاقة بين طرفي الخطاب لا تخص (رب الخلق /أشرف العباد).

وبناء على كل هذه المعطيات الخارجية استطاعت "بنت الشاطئ" التنبه إلى ما ملحظ بياني رائع ومتميز لم يسبقها إليه أحد وهذا فيما يخص القسم بالضحى والليل إذا سجى:

فحسب رأيها: المقسم به في آيتي الضحى، صورة مادية وواقع حسي، يشهد به الناس في كل يوم تألق الضوء في صحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن دون أن يختل نظام الكون أو يكون في نوادر الحالين عليه ما يبعث على إنكار، بل دون أن يخطر على بال أحد أن السماء قد تحلق على الأرض وأسلمتها إلى الظلمة والوحشة، بعد تألق الضوء في ضحى النهار، فأي عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلى نوره على المصطفى صلى الله عليه وسلم فترة سكون يفتر فيها الوحي، على نحو ما تشهد من الليل الساجي يوافي بعد الضحى المتألق.

فبذكر المقام المحدد استطاعت المفسرة تحديد الوظيفة المحدد لأن: جملة(والضحى والليل إذا سجا)كانت لتحل دلالات أخرى إذا استعملت في مقامات أخرى لكنها في هذا المقام كانت رسالة طمأنينة بفترة سكن فيها الوحي.

وتواصل "بنت الشاطئ" اعتمادها على السياق المقامي في تفسيرها:

ألم يجدك يتيما فأوى
ووجدك ضالا فهدى
ووجدك عائلا فأغنى

الضحى 6- 7- 8

فترى أن هذه المقولات اللغوية المختلفة المتعددة في هذا الموقف تحمل وظيفة واحدة وهو: طمأنة المصطفى إلى أن الله غير تاركه ولا مودعه.

فمناسبة ارتباط هذه الآيات بما قبلها واضح، فهو تعالى يبث في نفس الرسول الطمأنينة ويثبت قبله بلفته إلى ما أسبغ الله عليه في أولاه من نعم.

-كان يتيما بل مضاعف اليتم فآواه ووقاه مسكنة اليتيم.
- كان ضالا حائرا فهداه تعالى إلى دين الحق.
- كان عائلا فأغناه بفضله وكرمه.

أفما يكفي هذا ليطمئن المصطفى إلى أن الله غير تاركه ولا مودعه؟ وهل تركه حين كان صبيا يتيما معرضا لما يتعرض له الصبية اليتامى من قهر وضياع؟ وهل قلاه حين كان ذا عيلة حائرا يرهقه التفكير في ضلال قومه ثم لا يدري سبل النجاة؟

وفي مواضع عدة من التفسير البياني تنبه "بنت الشاطئ" إلى الشيفرة المستعملة في الخطاب القرآني كونه خطابا عربيا.

من ذلك قوله تعالى: ((وأولئك أصحاب الميمنة)). [البلد 16].

فبنت الشاطئ تشير[35] إلى أن اللغة العربية ألفت استعمال اليمين في البركة واليمن والتفاؤل والقوة، وفي الاستعمال القرآني نلمح ملحظ البركة في اختيار الجانب الأيمن للموضع الذي تجلى فيه الله سبحانه لموسى عليه السلام.

((فلما أتاها نودي من شاطئ الواد المقدس في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين)) القصص30

((وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا)) مريم 52

وكان فيه ملحظ القوة في آيات الزمر 67،طه17،الأحزاب50...

وملحظ الخير والتفاؤل في إيتاء المؤمن كتابه بيمينه، إسراء 71، الحاقة 19، الانشقاق 7. وأهل الجنة يوم القيامة هم أصحاب اليمين، وأصحاب الميمنة، وفي قوله تعالى: ((لا أقسم بهذا البلد))، [البلد 1]، تلفت "بنت الشاطئ" إلى أن هذه المقولة غير كاملة إلا بوضعها في مقامها، فتذكر[36] وتشدد من البداية على أن السورة مكية بالاتفاق وقد نزلت قبل فتح مكة بسنين لكي تخلص إلى أن البلد المقسم به في الآية هو مكة، وكالعادة تعطي نظرها بعد الاستقراء فتؤكد أن حيثما جاء "هذا البلد في القرآن الكريم مفردا معرفا ب: ال، مشارا إليه بهذا، فإن الإشارة تعين أن "ال" للعهد وهذا البلد هو مكة كما في آيتي البلد.

أما إذا جاء البلد بغير اسم الإشارة كما في آية الأعراف 58 فليس خاصا بمكة، بل عامة لجنس البلد الطيب ((والبلد الطيب يخرج بناته بإذن ربه)).

إن إيمان "بنت الشاطئ" بأن السياق الذي هو **"هوية المتخاطبين محيطهم المادي والمكان، الزمان اللذان تجري فيهما الأحاديث"**[37] مسؤول أساسا على توجيه العمل التفسيري فإنها تحاول دائما وضع النص القرآني في سياقه الاستعمالي بل تتمثل ذلك الاستعمال وتضع نفسها في ذلك الجو للولوج إلى المعنى الأدق.

من ذلك ما جاء في تفسيرها لقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} [العلق 1]، فهي تقرر أن المشهور في هذه السورة أنها [38] أول سورة نزلت من الوحي، ثم تحاول أن تضع نفسها في جو ذلك العصر، فتتعجب أن تكون كلمة {اقْرَأْ} أول ما استهل به الوحي إلى النبي الأمي المبعوث في الأميين رسولاً منهم، وأن يكون "الكتاب" معجزة هذا النبي المصطفى لختام رسالات الدين منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، والعصر عصر بداوة، والبيئة وثنية جافية لا عهد لها بمظاهر الحضارة المادية والفكرية التي ازدهرت في بيئات أخرى كوادي النيل، ووادي الرافدين....

ثم تشير "بنت الشاطئ" إشارة تداولية رائعة تثبت فيها أنها في مسرى دراسة اللغة أثناء الاستعمال فتقول: ونحتاج هنا في هذه السورة المبكرةمن أول الوحي، إلى تمثل ما كان لها من وقع في نفوس الذين تلاها فيهم المصطفى عليه السلام، مستأنسين بما كانت البيئة العربية في عصر النبوة تفهمه وتدركه، بعيداً عما أضيف إلى هذا الفهم من محدث التأويلات التي أضافتها عصور متأخرة.

وتبرز لنا "بنت الشاطئ" أيضا وضع (حالة) المتلقي، فمحمد كان قبل المبعث في حيرة من أمره وأهم قومه، يراهم على سفه وضلال، وينكر عبادتهم لأرباب صنعوها بأيديهم من خشب وحجر وطين ثم نسوا أنهم صنعوها وكدسوها في ساحة البيت العتيق وعكفوا عليها عابدين.

وتخلص بعد هذا إلى أن الغرض الموجه (الفعل الإنجازي) تقرير لربوبية الخالق وتخصيص خلق الإنسان بالذكر دون سائر المخلوقات ولأنه هو المختص بالعلم بالعلم والقراءة.

والكتاب يزخر بأمثلة كثيرة تؤكد حرص "بنت الشاطئ" على استحضار والجمع بين السياق الخارجي والداخلي وأثر ذلك في تحديد المعنى ومعرفته، بل جعلته من الأمور التي تحدد المعنى عند الاشكال في تأويل الآيات القرآنية، وفي العنصر الموالي ستكشف أهمية ذلك الجمع في تفسيرها.

2) النظرة الشمولية للنص:

انعكس الفكر التداولي عند "بنت الشاطئ" من خلال اهتمامها بالمقامات التخاطبية الفعلية، فقد أدركت أنه لا يمكن بلوغ تفسير سليم للقرآن الكريم إلا بوضعه في هذه المقامات.

فكان لها كما رأينا اهتمام بالغ بالسياق بنوعيه (داخلي وخارجي) بشكل تكاملي وبذلك بلغت توليدا لأفكار مبتكرة وأنتجت وجها تجديديا لكتاب تفسيري يتلاءم مع ما تنادي به الدراسات التوليدية الحديثة.

فمن أهم: **"السمات المميزة للتفكير البراغماتي في علم أصول الفقه معاملة القرآن الكريم والسنة النبوية كاللفظة الواحدة وأن كل جزء من هذه اللفظة ينبغي النظر فيه في ضوء علاقته مع الأجزاء الأخرى... وعلى المفسر أن يكون على دراية بكل النصوص المتعلقة بالنص الذي يدرسه والإخفاق في ذلك يؤدي كما يذكر الشاطبي إلى إخفاق بلوغ مراد الشارع"[39].**

وهو الأمر الذي طالما نادت به "بنت الشاطئ" إذ أنها تعتمد على المنهج الموضوعي والأصل في هذا المنهج: **"التناول الموضوعي لما يراد فهمه من كتاب الإسلام ويبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس... ونحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحمله نصا وروحا"[40].**

وكما ذكرنا سابقا لم تستطع "بنت الشاطئ" تحقيق هذا المنهج بحذافيره لما فيه من صعوبة، إلا أنها اعتمدت سورا قصارا ملحوظ فيها الاشتراك في المواضيع .

تؤمن المفسرة[41] بأن الكتاب الأكبر كل متكامل يفسر بعضه بعضا، فلا مجال للاختلاف والتنافر، لذا تعالجه معالجة خاصة فترفض النظر فيه سورة سورة، يؤخذ اللفظ أو الآية فيه مقتطعا من سياقه العام في القرآن الكريم كله، مما لا سبيل إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه، أو لمح ظواهره الأسلوبية وخصائصه البيانية.

فتسوق سورها المفسرة في ترتيب مقصود، بغية بلوغ المعنى الأدق. فتبدأ بسورة الضحى، فسورة الشرح (الانشراح)، وتبين أن[42] هذه الأخيرة نزلت بعد سورة الضحى، واقترنت بها في رواية تقول إن الضحى والشرح سورة واحدة لما يبدو من المناسبة في سياق تعدد النعم، بين قوله تعالى في سورة الضحى: ألم يجدك يتيماً فآوى. . . وقوله في الشرح: أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. . .

أما السور الثلاثة الموالية فكانت بالترتيب (الزلزلة/ العاديات/ النازعات) ورغم اختلاف أوقات نزولها (فالأولى مدنية مبكرة والثانية مكية والمشهور أنها الرابعة عشر في التنزيل والثالثة مكية متأخرة).

إلا أن الناظر في التفسير البياني يجد أن "بنت الشاطئ" عمدت إلى هذا الترتيب تبيانا لملحظ بياني مهم وهو أنها سور تستحضر مشهد يوم باعث شاخص مجسم وتأكد وقوعه وتنذر الإنسان مما ينتظره من حساب دقيق عسير.

وختم الجزء الأول بسورتي (البلد فالتكاثر) خدمة لغرض واحد وهو تجسيد فساد الأوضاع الاجتماعية من غرور وأنانية وقسوة وظلم، مع الوعيد والنذير المسيطر على السورتين.

وبالرجوع إلى الجزء الثاني تبدأ المفسرة بسورة العلق فالقلم، وكتأكيد للعلاقة بينهما تذكر في تفسير سورة العلق أن بعض المفسرين كالرازي في تفسيره أطلق عليها الكبير اسم سورة القلم، ولكي لا يلتبس الأمر مع سورة القلم التي نزلت بعدها مباشرة سمى هذه الأخيرة (ن)[43] ، وترى بنت الشاطئ في السورتين (العلق والضحى) تثبيتا لفؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذهابا لقلق نفسه وشغل باله خصوصا أنه في أول عهده بالوحي وما عليه إلا الصبر.

ثم تورد عائشة هذه السور على الترتيب (العصر ، الليل ، الفجر) ونلاحظ أن ترتيبها كان ترتيبا زمنيا منطقيا فوقت العصر يليه الليل فالفجر في دورة كاملة.

وكان من وراء ذلك كعادتها الإشارة إلى ملحظ بياني من تقارب السور الثلاث، فالعصر ما يعتصر الزمن من خلاصه إنسان بالضغط والمعاناة فيكشف عن خيره وشره وتجلو الظاهرة الأسلوبية التي يعمد فيها البيان القرآني إلى جلاء المعنويات بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتها على مدى اليوم الواحد من عشية الليل وتألق الفجر بنوره فيخلص الإنسان من ذلك الضغط والمعاناة كما أن السور الثلاث توجه البشرية إلى الابتعاد عن أوضاع فاسدة واحتمال مسؤولية اجتماعية والرغب إلى الله تعالى.

ويختم الجزء الثاني بسورتين (الهمزة والماعون) وكلاهما تكامل لصورة نذير ووعيد للبشرية، والإنسان لا يجب أن يكتفي بالواجب الفردي وأداء العبادات بل يجب عليه احتمال مسؤولية عامة من زكاة وتكافل وتراحم وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

واعتماد "بنت الشاطئ" على هذه الترتيب لا يعني أنها تتناسى ترتيب المصحف بل على العكس أول شيء تذكره قبل البدء بتفسير أي سورة ذكر مكان النزول (مكية أو مدنية) وترتيبها في المصحف الشريف، وتعتمد كذلك عليه فمعلوم أن: **"ترتيب الآي في القرآن لم يخضع لترتيب النزول وإنما هو أمر توقيفي حصل فيما بعد بأمر من رسول الله"**[44]، والأكيد أن لذلك حكمة.

ولا يقتصر التناول الكلي عند المفسرة على السور فيما بينها فقط، وإنما نجد أنها تنظر للسورة في حد ذاتها نظرا كليا، فمن أجل تحديد المعنى تعمل على استحضار السياق بنوعيه، وفي ذلك توافق العمل التداولي إذ تستقي كلمة الخطاب الداخلة في بنية البلاغة الجديدة،[45] مشروعيتها **"من طبيعة تصور المادة التي تعالجها والسياق الذي تندرج فيه لأنه الخطاب البلاغي المعاصر في جميع الثقافات الحية، يتجه إلى اكتساب صيغة كلية شاملة تغطي النص"**[46].

وبذلك فإن تفسير النص القرآني يحتاج إلى ربطه بعناصر الموقف التواصلي، وبقدر ما أن هذه الدعوة تداولية إلا أن صداها يسبق "بنت الشاطئ" بكثير، كيف لا وعلمائنا العرب منذ القديم يقررون أن "لكل مقام مقال" وفي هذا إشارة إلى اهتمام أسلافنا بالسياق بنوعية داخليا وخارجيا للولوج إلى المعنى الدقيق.

وفي هذا يقول بشر بن المعتمر (ت210 هـ): **"ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"**[47].

فقد تعامل التراث العربي مع الخطاب الأدبي على مستويين (مستوى داخلي = سياق داخلي) و(مستوى خارجي = سياق خارجي).

وكان استحضار السياق ببعديه الخارجي والداخلي عاملا مهما في معرفة المعنى وتحديده فدلالة السياق ترشد إلى: **"تبيين الجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فإن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظرته"**[48].

ولننظر إلى قوله تعالى: ((إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ))، العاديات: 6-7- 8.

وتحديدا في قوله: ((وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)) عاديات 7-8. فكيف استطاعت المفسرة من خلال السياق أن تحدد أن هذه الآية توحي بالزجر والوعيد [49] لما في الانسان من بخل وإمساك وعدم انبساط، رغم أن اللغة تحتمل أن يكون الخير ضد الشر، وبالتالي ينقلك الأمر ينقلب الأمر إلى مدح ؟؟؟.

جمعت "بنت الشاطئ" بين السياقين:

السياق الخارجي: أسباب نزول حال المتلقي انذار بيوم القيامة الذي يستر شيئا، وتذكير النفس البشرية بخباياها السيئة.

السياق الداخلي: قائم على البنية اللغوية وعلاقة الآية المذكورة بالآيات السابقة واللاحقة فإذا كانت اللغة تحتمل أن يكون الخير: للمال، والخيل، وضد الشر والخيار والفضيلة إلا أن سياق آية (العاديات) يرجح أن الخير فيها هو الخير المادي أو شبهه، فهذا الإنسان الكفور بنعمة ربه الشاهد على نفسه بالكنود، لا يكون لا يكون حبه للخير الذي هو فضيلة وإنما حب للمال شديد.

وبذلك فإن الباحثة تتبنى مفهوم التداولية وذلك من خلال دراسة ارتباط القضايا بالنسبة للسياق.

ففي التفسير البياني كان للسياق **"هذا الدور التجديدي المصيري للكائن المعنوي فقد صار من اللازم الوجوبي في عمليات التفسير ضبطه وإدراكه كلاميا ومقاميا وذلك بتحديد ملابساته وأطرافه ومفرداته من السوابق واللواحق التي تكون في جملتها سناد المعنى وحسمه وروحه والتي من دونها تميز للكلمة المفردة معامل عديدة لا ترجح إحداها إلا بقرينة أو أثر دال"[50].**

وبذلك فإن "بنت الشاطئ" تعتمد في تفسيرها على تحليل تداولي فتبدأ بتحديد السياق الخارجي ومعرفة أسباب النزول ثم تحديد المعنى النصي السياقي ثم الاستدلال على الانسجام النصي، وتمزج كل هذا لتعطي نظرا متكاملا منتظما، موظفة للتمام سياقي.

ومفهوم التمام السياقي مفهوم معاصر يستعمله التداوليون باعتباره **"محددا رئيسيا لعملية التأويل ويقصدون به أن المرويات تحمل في طيها معلومات تظل تنقصها مكملاتها مما يحمله السياق من قرائن تفيد في جلاء المعنى وصفات الصورة الدلالية"[51].**

وتحرص بنت الشاطئ في تفسيرها على التناسق في جميع المستويات اللسانية، فتبدأ من الأصوات فالكلمات فالجمل فالآيات فالسور، وكمثال على ذلك ما تعرضه عن كل تلك المستويات في تفسيرها لصورة التكاثر.[52]: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ* كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ* ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾. [سورة التكاثر]

ثم نلملم كل تلك النظرات وتبحث عن التناسب بينها فتقول أن سر البيان فيه أن هؤلاء الذين ألهاهم التكاثر في الأموال والأولاد وغيرهما من أغراض الدنيا الزائلة، وحسبوها النعيم الذي ما بعده نعيم، وشغلوا بها عن التزود لآخرتهم، سيسألون يوم يرون الجحيم عين اليقين عن الحق ما هو؟ ويومئذ يدركون يقينا حقيقة النعيم الذي ألهاهم عنه التكاثر على نعم مآلها احتشاد في المقابر ثم البعث وحساب.

وتضيف أن سر البيان هنا: أن الموقف في الآخرة هو موقف العلم اليقين والإدراك المتحقق الذي لا مجال فيه لشك وارتياب، وإذا كان نعيم الجنة هو النعيم الحق كان السؤال في موقف الحق عن النعيم الحق لا عن أغراض زائلة من صحة ومال...

وتخلص إلى أن الإنذار بهذا السؤال عن النعيم، يتسق على أكمل وجه مع الوعيد المسيطر على السورة كلها، وبه تتلاءم آياتها وتترابط في نسق معجز لا موضع فيه لخلل الصنعة واضطراب النظم وتفاوت جو الأداء وتغير روح الموقف مما أقحمته تأويلات يفوتها إدراك أسرار التعبير في المعجزة الخالدة.

وكذلك ما نجد في تفسيرها من سورة الفجر إذ تقرر في الأخير أن هذه السورة مبكرة من العهد المكي، (إطار زماني ومكاني) الذي اتجهت فيه عناية القرآن الكريم إلى تقرير أصول الدعوة وتوجه إلى تحرير البشرية من أوضاع فاسدة، وتقرر مسؤولية الإنسان عنها فتصل في رياضته إلى المدى الذي يصير فيه أداء حق الجماعة دنيا وعقيدة وتكون طمأنينة النفس هي الزاد الذي يتزود به الإنسان لمصيره، وكل نفس ذائقة الموت، فأي عزاء يمكن أن يجده

الإنسان المؤمن إذ يواجه هذا القضاء الذي لا مفر ولا مهرب منه، إلا أن يتلو آيات الفجر. ((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي)).

واعتمادا على هذا التفنن والتناسب الذي يزخر به التفسير البياني استطاعت "بنت الشاطئ" الكشف عن أسرار البيان القرآني بشكل تجديدي فريد من نوعه.

خاتمة: من أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث :

-الدراسة التفسيرية عند بنت الشاطئ تحتكم إلى الجانب السياقي وتتجاوز النظر البنيوي العقيم.

-من أهم ضوابط المنهج البياني: ترتيب الآيات حسب نزولها لمعرفة ظروف المكان والزمان والاستئناس بالمرويات في آيات النزول من حيث هي قرائن لابست نزول الآيات.

-بنت الشاطئ لا تباشر عملية التفاعل مع النص إلا بوضعه في سياقه اللغوي.

-تتوافق بنت الشاطئ مع ما جاء به "فيرث" (firthe) ؛من أن تحديد المعنى يتوقف على تحليل السياق اللغوي، بيان شخصية المتكلم والمخاطب ،والظروف المحيطة .

-تهتم بنت الشاطئ بالسياق الداخلي من خلال التركيز على المكونات اللغوية والبلاغية مفردة ومركزة، وبالسياق الخارجي من خلال دراسة الظروف الخارجية المحيطة بالخطاب القرآني.

-تنظر بنت الشاطئ إلى النص القرآني على أنه خطاب نصي وليس وحدات جزئية.

---

[1]: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب(دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، ص 26.

[2]: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 14.

[3]: Crystal, D (1994) a dictionary of linguistics and phonetics Black Will, Grat Britain, p 271

نقلا عن: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 11.

[4]: أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، ص: 677.

[5] :جورج بول، التداولية pragmatics ، تر: قصي العنابي، الدار العربية للعلوم ناشرون ،الرباط، ص 82.

[6]:عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني للقرآن الكريم ،دار المعارف، مصر، ط7، ج1، ص 10، 11.

[7] :ينظر: نفسه، ج1، ص 28، 29.

[8] :ينظر، نفسه، ج1، ص: 44، 46.

[9] :أسامة البحيري، البنية المتحولة في البلاغة العربية، دار العلم والإيمان، مصر، ط1 ، 2010، ص 89.

[10]: عائشة عبد الرحمان، التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 23.

[11]:نفسه، ج1، ص10، 11.

[12]: ينظر، نفسه، ج1، ص 35، 36.

[13]:ا أسامة البحيري، لبنية المتحولة في البلاغة العربية، ص: 16.

[14]: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ص: 8.

[15]: أسامة البحيري، البنية المتحولة في البلاغة العربية، ص 87.

[16]:ينظر، نفسه، ص: 91.

[17]:ينظر، نفسه، ص: 90.

[18]: عائشة عبد الرحمان،التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 17.

[19]:ينظر: نفسه، ص: 81، 83.

[20]: ينظر :نفسه، ج1، ص 118.

[21]:ينظر :نفسه ،ج2،ص158،159 .

[22]:ينظر،نفسه،ج2،ص 117.

[23]:ينظر: نفسه ،ج1، ص34،35.

[24]:نفسه، ج2، ص: 7-8.

[25]:ينظر :نفسه، ج2، ص 168، 170.

[26]:ينظر: نفسه، ج1، ص 38.

[27]: ينظر: نفسه، ج1، ص 40.

[28]:ينظر: نفسه، ص 75.

[29]: ينظر: أسامة البحيري، البنية المتحولة في البلاغة العربية، ص 90، 91، 92.

[30] :الجيلالي دالاش، مدخل إلى تداولية ، تر: محمد يحياتين، مدخل إلى اللسانيات التداولية ،ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون ، الجزائر، ص 40.

[31]: G. Mounin, dictionnaire de la linguistique, p : 83, 84.

نقلا عن: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس اللغوي)، بيت الحكمة، الجزائر، ط2،2012، ص 93.

[32]: أندري مارتيني، وظيفة الألسن وديناميتها، تر: نادر سراج، المنطقة العربية للترجمة ، بيروت، لبنان، ط1 ،2009، ص71.

[33]: ينظر: فيلني سانديرس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، تر: خالد محمود جمعة، دار الفكر ، دمشق، سوريا، ط1 ،2003، ص 80، 81، 82.

[34]:ينظر: عائشة عبد الرحمان،التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 23 وما بعدها.

[35] ينظر: نفسه ، ج1، ص 189.

[36] :ينظر: نفسه، ج1، ص 169.

[37] :صابر حباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية (قراءة في شروح التلخيص للخطيب "القزويني"، دار صفحات للدراسة والنشر، دمشق، سورية، 2011، ص 146.

[38] :ينظر، عائشة عبد الرحمان،التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 13، 14، 15، 16.

[39]:محمد محمد يونس، علم التخاطب الإسلامي (دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص)، دار المدار الإسلامي ، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص 86.

[40]: عائشة عبد الرحمان،التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 10، 11.

[41]:ينظر: نفسه، ج1، ص 17، 18.

[42]:ينظر: نفسه، ج1، ص 57.

[43]:ينظر: نفسه، ج2، ص: 13.

[44]: إدريس مقبول، الأفق التداولي، (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية)، عالم الكتب الحديث ، الأردن، ط1 ،2011، ص19.

[45]: البلاغة الجديدة: ظهر هذا المصطلح سنة 1958 في عنوان أحد الكتب الشهيرة التي ألفها المفكر اليوناني الأصل البلجيكي المقام، بيرلمان وزميله تيتكاه تحت اسم مصنف في الحجاج البلاغة الجديدة، وفيه محاولة لإعادة تأسيس البرهان أو المحاججة الاستدلالية باعتباره تحديدا منطقيا بالمفهوم الواسع.

ينظر ،صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 65.

و قالط العنزي، التداولية التفكير البلاغي، دراسة في "غرر البلاغة" لهلال بن المحسن الصابئ ،عالم الكتب الحديث ، الأردن، ط1 ،2014، ص 3.

[46]: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 318.

[47]: الجاحظ، البيان والتبيين، تح: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2002، ج1، ص131.

[48]:الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو فضل ،دار التراث،ج2، ص 200، 201.

[49]:ينظر: عائشة عبد الرحمان،التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 110- 114.

[50] : إدريس مقبول، الأفق التداولي، ص 55.

[51]: نفسه، ص 155.

[52]: ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم ، ج1، ص 197- 216.